محاضرات

الأدب العربي في الأندلس

الفرقة الأولى
قسم اللغات الشرقية وآدابها

أ.م.د.مروة شحاته
أستاذ الأدب الأندلسي المساعد

قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب
جامعة دمنهور

المحاضرة : الثانية
المادة : الأدب العربي في الأندلس
الفرقة : الأولى
الموضوع : الرسائل الإخوانية في الأندلس

الرَّسَائِلُ الإِخْوَانِيَّة (الشَّخْصِيَّة) :

الرسائل الإخوانية هي « تلك الرسائل التي تدور بين الإخوان والأصدقاء والخُلَصاء ، ومنها أيضًا الرسائل التي يُرْسِلُهَا الكاتب إلى مَن يريد أن يخطب مودته ، أو يلتمس منه أمرًا من الأمور . وهذا النوع من الرسائل ميدانٌ فسيح للإبداع يتبارى فيه الكتاب والأدباء ، ويُتيح لأقلامهم وقرائحهم أن تنطلق على سجيتها ، وأن يعبِّر أصحابها عن عواطفهم الشخصيَّة في لغة مصقولة مُنْتَقَاة ، وأساليب قَوِيَّة مُوَشَّاة » .

ولهذا النوع من الرسائل أغراضٌ شَتَّى ، أوصلها القلقشندي صاحب كتاب (صُبْح الأعشى) إلى سبعة عشر غرضًا ، هي : التهاني ، والتعازي ، والتهادي ، وطلب الشفاعة ، والتشوُّق ، والاستزارة ، ورجاء المودة ، وخِطبة النساء ، والاستعطاف ، والاعتذار ، والشكوى ، واستماحة الحوائج ، والشكر ، والعتاب ، والسؤال عن حال المريض ، والمُدَاعَبَة.

وفي القرن الخامس الهجري أخذت هذه الرسائل تقترب من الشعر ، في كيفية تعبيرها عن العواطف ، وتناولها جانبًا كبيرًا من العلاقات الاجتماعيَّة بين الأفراد ؛ فهي « شعر غنائي منثور يجد فيها كاتبها متنفسًا حُرًّا عن عواطفه ، لا يُقَيِّدُهُ فيها وزن ولا قافية ، وهي أقرب فنون النثر إلى الشعر ، وهي تعبير عن عاطفة شخصيَّة » .

ومن رسائل **العتاب** رسالة **أبي عامر بن شُهَيد (ت٤٢٦هـ)** إلى **أبي الجيش مجاهد العامريّ** (ت٤٣٦هـ) أمير دَانِيَة يُعَاتِبُهُ فيها على إهماله للصداقة التي تجمع بينهما ، وانشغاله بأمور السياسة ، ويبدؤها بتذكيره بأيام الصِّبَا والشباب ، يقول : « كنَّا قبلَ أن ترمي بنا النَّوَى مَرَامِيهَا ، وتُلقِي الخطوبُ علينا مَرَاسِيهَا ، وتمخضنَا الأيامُ مخضًا ، وتركُضَ بنا الليالي ركضًا ، تِرْبَي صُحْبة ، وحَلِيفَي صَبْوَة ، قد تَخَلَّينَا عن الأنساب ، وانتسبنا إلى الآداب ، والدَّارُ إذ ذاك صقب ، والملتقى كثب ؛ فإذا شَمَخَ بأحدِنَا مَارِن ، وثار به كمدٌ ساكن ، بعَتْبٍ على زمن ،

وتقصير بإرادةٍ عن سَكَن ، تعاطينا كأس الشكوَى ، وتجاذبنا حبل البلوى ، والزمانُ غِرّ ، وحواصِلُنا صُفر ، نَتَرَنَّمُ تَرَنُّمَ الحَمَام ، على زُرْقِ الجِمَام ، ثم ألقَت الأيَّامَ علينا بكلكل ، وأناخَتْ من فوقنا بجران ؛ فنثرتنا بكلِّ فَجٍّ عميق ، وأُفْقٍ سحيق ، نثر الدرر ، شَذَر مَذَر ، ونفحت عليك رياحُ السعد ، وجاءتك المُنَى من تهامة ونجد ، وامتطيت ظهر الجوزاء ، وافترشت لبدةَ العوَّاء ، وكلما دعيت إلى النزال والعراك ، تترَّست بالثريا وطعنت بالسماك ؛ فزحمت منكبَ الدَّهر ، وقضيت أربك منه على قهر ؛ فكان أوَّل حيصتك عن الوفاء ، وحيدتك عن رعاية قديم الإخاء ، أن تركت المخاطبة ، وأضربت عن المكاتبة ، خشيةَ أن يكون كلُّنا عليك ، ورغبتنا في ما لديك ، وهيهات ! يأبى ذلك كرمٌ محض ، وهِمَّةٌ علياء ما لها خفض . ثم قلت : حملُ أحسن الظن أجمل ، والقضاء بأكرم العهد أقبل ، قد تشتغل الرؤساء ، وتتجاذب العظماء ، وعينه مع ذلك راعية ، وأُذُنُه واعية ، وإنما الوصلُ بالفؤاد لا بالمِدَاد ، والالتقاءُ بالحلُوم لا بالجسوم ؛ فانطويتُ على ودّ ، وثبتّ على صحة عَقد ، ثم دارتِ الدُّهور ، وطلع البشير ، أن قيل لطالعكم عسكرٌ جرار ، فيه لأسد العرين نار ، قضي لكم به الأمر ، وخفقت عليكم ألويةُ النصر ؛ فقلت : من زعيمُ هذا الجيش ؟ قيل لي : أخوك أبو الجيش ، قلت : رَءُوفٌ عطوف ، شَفَّاقٌ للصفوف ، وواحدٌ يعدلُ بألوف ، وقلت : رُدَّ شُهَيْدٌ في أُمتك من أمم ، وجاءتك تسعى على قدم ، وَضَحَ الصُّبْح لذي عينين ، وأمكن البطشُ ذا يدين ، هذا حبيبك قائدُ أعنتها ، وذا خليلك مالك أَزِمَّتها ، هذا أبو الجيش مُصْعَبٌ على مُقرب ، ومغضَبٌ يضرِبُ بمقتضَب ، آن لذهبِ العلم أن يَزِفَّ ، وحان لجوهر الفهم أن يشف ، ويلٌ للجهلِ وبينه ، وعشيرته وأقربيه .

وفي فصل منها : ولقيتُ إخوانًا لقوك ، فوالذي جعل الغدرَ من شِعَارِهِم ، والحذر من دِثَارِهِم ، ما أجروا فيّ ذكرك ، فضلاً على أن يُجْرُوا ذِكْرِي لك ، وهم يعلمون أنَّ مرماي غيرُ مرماهم ، ومغزَاي سوى مغزاهم ، ويوقِنُونَ أنَّ أبعد آمالي في صديقٍ إذا سما ، وأرفع رغباتي لديه إذا طَمَى ، انفراجُ بابه ، وانهتاكُ حجابِه ، يُمَتِّعُنِي بإشراق وجهه ، ويوردُني غديرَ بِشْرِه ، ويزنُني بغيري من إخوانه ، ويضربُني بسوايَ من أهل زمانه ، ولا يُقَلِّل حَظِّي من إكرامه ، ولا يهجُرُ قسطي من لطيف اهتمامه ، بعد أن يعدلَ القِسْطَاسَ ، ويميزَ الذَّهَبَ من النُّحَاس » .

ومما يدخل في غرض **التهاني** ما كتبه **أبو محمد بن عبد البَرِّ** إلى **المعتضد بن عباد** يهنئه بانتصاره وضمه مدينة **شِلْب** ، مُظْهِرًا سعادته ، يقول: « كِتَابِي – أَعَزَّكَ الله – عن حالٍ

قد طال جُنَاحُهَا ، وآمالٍ قد أسفر صَبَاحُهَا ، ويَدٍ قد أورى زَنْدُهَا ، ونَفْسٍ قد انْتَجَزَ بِنُجْحٍ كُلِّ مُحَاوَلٍ وَعْدُهَا ، بِمَا وَرَدَنِي بِهِ كِتَابَاكَ الكَرِيمانِ ، أَعْزِزْ بِهِمَا من جميل صُنْعِ اللهِ لك بحصولِ قاعدة شِلْبٍ وذَوَاتِها في قَبْضَتِكَ ، واسْتِذْرَاءِ ذلك الأُفُقِ بِظِلِّ طَاعَتِكَ ، وخروجِ صَاحِبها عَنْهَا مِنْ غَيرِ عَقْدٍ عَاصِمٍ ، ولا عَهْدٍ لازِمٍ ، قَدْ كَذَّبَهُ ظَنُّهُ فِي التَّمَاسُكِ ، وَأَخْلَفَهُ أَمَلُهُ فِي التَّهَالُكِ ، ورَغِمَ بِهِ أَنْفُ مَنْ بَعُدَ عَنْهُ ، وجُدِعَ به مَنْ لم يُوضَعْ المِيسَمُ عَلَيهِ ، فَأَيُّ نِعْمَةٍ يا سَيِّدِي ، وَأَعْلَى عُدَدِي ، مَا أَجَلَّهَا وَأَجْزَلَهَا ! ، وَأَيُّ مِنَّةٍ ، مَا أَتَمَّها وَأَكْمَلَهَا ! ، عَلَى حِينَ تَضَاعَفَ حُسْنُ مَوقِعِهَا ، وَبَانَ لُطْفُ مَحَلِّهَا ومَوضِعَهَا ، وَلاحَتْ عُنْوَانًا في صَحِيفَةِ مَسَاعِينَا ، وبُرْهَانًا – بِحول اللهِ تعالى – على تَأَتِّي أَرَاجِينَا ، فَالحَمْدُ لله ، ثُمَّ الحَمْدُ لله ، على مَا مَنَّ به وأَحْسَنَ فِيهِ ، حَمْدًا يُؤَدِّي الحَقَّ وَيَقْضِيه ، وَيَحْتَوِي المَزِيدَ ويَقْتَضِيه ، وَهُوَ المَسْئُولُ عَزَّ اسْمُهُ أَنْ يُتْبِعَ ذَلِكَ بِأَشْكَالِهِ ، وَيَشْفَعَهُ بِأَمْثَالِهِ ، ويُهَنِّئَ ذلك النُّجْحَ سَلْمًا وحَرْبًا ، وشَرْقًا وغَرْبًا ، والظُّهورَ بُعْدًا وقُرْبًا ؛ فَظُهُورِي مَنُوطٌ بظهورك ، وسروري مَوصولٌ بسرورك ، واتِّصالُ حالي بأَحْوَالِكَ ، وحَبْلِي بِحِبَالِكَ ، هَنَّأَكَ اللهُ وَإِيَّاي مَا خَوَّلَكَ ، وقَرَنَ بالزيادة آلاءَه قِبَلَكَ بِمَنِّهِ » .

كما كتب **أبو عبد الله محمد بن شرف القيرواني** (ت٤٦٠هـ) رسالة يشفع فيها لأحد الشيوخ عند **المُظَفَّر بن الأفطس** ؛ فقد أبعده هذا الأخير عن أهله وبيته ووطنه بسبب الوشاة ، الذين ألصقوا به تُهَمًا ، دفعت بالملك المظفر إلى طرده من البلاد ، يقول : « لي رَغْبَةٌ إلى مفاخِرِه ، وتَطَارُحٌ بينَ يَدَي مآثِرِه ، وإدلالٌ على سَمَاحَةِ سَجاياه ، وتَحامُلٌ على احتمالِ عُلْيَاه ؛ وذلك أنَّ شيخًا يَفَنًا قَصَدَ فنائي ؛ فبكى حتى بَلَّ بفضلِ دُمُوعِهِ رِدَائِي ، ومَنَعَهُ الشَّوقُ بشَجاه ، مِنَ الكلامِ على ما ارتجاه ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ كاسِبُ نُسَيَّات ، وأبو بنينَ وبُنَيَّات ؛ فَنَسَبْتُهُ فقال : أنا أبو جَعْدَةَ نَهْشَل ، وذكَرَ مولانا المُظَفَّر فوصف خيرًا كثيرًا هو أكثر منه ، ودعا بخيرٍ أجابهُ اللهُ عنه ، ووَصَفَ أن بُغَاةً بغوهُ ، وحَسَدَةً آذوه ، وتنصَّلَ من ذنوبٍ قرفوه بها ، ومولاي أعلم بصدقها من كذبها ، ولم يُظْهِر حِرْصًا إلاَّ في الميتةِ الأهليَّة والتُّرْبَة الوطنية ؛ فبكى – علم الله – مع باك ، وشكا مني إلى شاكٍ ، وذو الشَّكْوَى يرحمُ الشَّكوى ؛ لعلمِهِ بمرارَة البَلْوَى . ولا شكَّ أنَّه سيبلغُه تفضُّلُ المُظَفَّر بالالتفاتِ إلى ذِكْرِي ، والعنايةِ ببعضِ أمري ؛ فلا يظنَّ أنَّ ذلك باستحقاقي ، وإن رقَّاني من الشَّرَفِ هذه المراقي ، ومن يَسمعْ يخلْ ، وما كلِّ ذِي سلاحٍ بطَل ، وقد تلطَّفتُ له بإذن اللهِ في القولِ ، وبرئتُ إليه تعالى من القوَّة والحولِ ، ووقَّفته على رأي المُظَفَّر الموفَّق ،

وحكمِه العدلِ المحقَّق ، وبودِّي لو تكلفتُ بآماله ، وجمعت بينهُ وبين أطفاله ؛ فهو في قعدد لُبَد ، وهامة اليومِ أو الغَد ، إلاَّ أني – أيَّدَهُ الله – لا أُوثِرُ مُرَادِي على مُرَاده ، ولا أشاركه في العلمِ بأهلِ بلادِهِ ، إلاَّ أنْ يتفضَّلَ بالأحسنِ الأجملِ ، عليَّ وعلى أبي جعدَة نهشَل ؛ فيعودَ – أيَّدَهُ الله – بفضيلة الإيثار ، ويُكسبني في الناسِ أطيبَ الأخبار والآثار ، ولقد هَجَمْتُ في العناية بما لا أعلمُ ثقةً بما أعلم ، وهو المتطوَّل إن شَفَع ، والمعذورُ إن دَفَع ، والجوابُ على هذه السُّطُور المحتويةِ على هذه الأمور ، بالأقوال والأفعال ، مِنْ كمالِ الإحسانِ والإفضال» .

فأجابه **المُظَفَّر** برقعةٍ من إنشاءِ الوزيرِ **أبي مروانَ بن قُزْمَان** ، وقَبِلَ شفاعته .

ومن رسائل **الشفاعة** رسالة **لابن زيدون** (ت٤٦٣هـ) بعث بها إلى ملك بطليوس **المُظَفَّر سيف الدولة أبو بكر بن الأفطس** يشفع فيها لأحد الأدباء فيقول : « وَهُوَ فَتًى نَامَ جَدُّهُ ، وَاسْتَيقَظَ حَدُّهُ ؛ فَتَنَكَّرَ الزَّمَانُ لَهُ ، وَاعْتَرَّت الأَيَّامُ بِهِ ، بَينَ ذِئَابٍ سِعَايَةٍ عَوَتْ عَلَيهِ ، وَعَقَارِبٍ وِشَايَةٍ دَبَّتْ إِلَيهِ ، وَأُصْلِيَ بِنَارِ حَرْبٍ لَمْ يَجْنِهَا ، وَأَعْدَتْهُ مِبَارِكُ جُرْبٍ الْتَبَسَ بِهَا ، وَآلَ بِهِ الأَمْرُ إِلَى فِرَاقِ أَحِبَّتِهِ ، وَالبُعْدِ عَنْ مَسْقَطِ رَأْسِهِ ، وَمَعَقِّ تَمَائِمِهِ ، عَلَى ضِيقِ حَالِهِ ، وَضَعْفِ إِحْسَانِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَزِدِ الحَاجِبَ إِلاَّ وَلاءً ، وَعَلَيهِ إِلاَّ ثَنَاءً ، وَأَنَّهُ لا يَزَالُ يُعِيدُ شُكْرَهُ وَيُبْدِيهِ » .

ومن رسائل الهجاء **الرسالة الهَزْلِيَّة** الشهيرة التي كتبها **ابن زيدون** على لسان ولادة بنت المستكفي (ت٤٨٤هـ) ، يتهكم فيها بالوزير أبي عامر بن عبدوس (ت٤٧٢هـ) تهكُّمًا مرًّا ؛ لأنه كان ينافسه في حُبِّ ولادة ، وتجرأ وأرسل امرأةً تُزَيِّنُهُ وتُبْرِزُ محاسنه إلى ولادة ؛ فاستشاط ابن زيدون غضبًا ، وكتب هذه الرسالة في غمرة غضبه وغيظه .

وقد بدأها بوصف ابن عبدوس بأوصاف الحمقى والجهلاء ، منكرًا منه إرسال امرأة إلى ولادة مثنيةً عليه ، واصفةً له بأوصاف أعيان الزمان من العلماء والأدباء ، وقد طردتها ولادة .

يقول في مطلعها : « أمَّا بعدُ ، أيُّها المصابُ بِعَقْلِهِ ، المُوَرَّطُ بِجَهْلِهِ ، البَيِّنُ سَقَطَهُ ، الفَاحِشُ غَلَطَهُ ، العَاثِرُ في ذيلِ اغْتِرَارِهِ ، الأعمى عن شمسِ نَهَارِهِ ، الساقِطُ سُقُوطَ الذُّبَابِ على الشرَاب ، المتهافِتُ تهافُتَ الفَرَاشِ إلى الشِّهَابِ ؛ فإنَّ العُجْبَ أَكْذَبُ ، ومعرِفَةَ المَرْءِ نَفْسَهُ أَصْوَبُ ، وإنَّك رَاسَلْتَنِي مُسْتَهْدِيًا – مِنْ صِلَتِي – ما صَفِرَتْ منه أيدي أمثالِكَ ، مُتَصَدِّيًا – من خُلَّتِي – لما قُرِعَتْ دُونَهُ أُنُوفُ أَشْكَالِكَ ، مُرْسِلاً خَلِيلَتَكَ مُرْتَادَةً ، مُسْتَعْمِلاً عَشِيقَتَكَ قَوَّادَةً ، كَاذِبًا نَفْسَكَ أَنَّك سَتَنْزِلُ عنها إليَّ ، وتَخْلُفُ – بَعْدَهَا – عَلَيَّ :

وَلَسْتَ بِأَوَّلِ ذِي هِمَّةٍ دَعَتْهُ لِمَا لَيسَ بِالنَّائِلِ »

تهكَّمَ من ابن عبدوس ، وسخر منه لأنه ظَنَّ أن ولادة تحبه ؛ فهذا دليل بَيِّنٌ على أنه مصابٌ في عقله ، مورطٌ بالجهل ، ظاهرُ السقط ، فاحش الغلط ، عاثرٌ في الغرور ، أعمى عن شمس النهار ؛ حتى لكأنه الذباب يتهافت على الشراب ، والفراش يلقي بنفسه في الشهاب ، وما منشأ ذلك إلا العُجْب الكاذب منه ، وكان الصواب أن يعرف قدر نفسه فلا يستهدي ما صفرت منه أيدي أمثاله ، ولا يتصدى لما قرعت دونه أنوف أشكاله .

ثم أخذ يهجوه بأوصاف في الخَلْق والخُلْق ، يقول : « هَجِينُ القَذَالِ ، أَرْعَنُ السِّبَالِ ، طَوِيلُ العُنُقِ وَالعِلاوَةِ ، مُفْرِطُ الحُمْقِ وَالغَبَاوَةِ ، جَافِي الطَّبْعِ ، سَيِّئ الجَابَةِ والسَّمْعِ ، بَغِيضُ الهَيئَةِ ، سَخِيفُ الذَّهَابِ وَالجَيئَةِ ، ظَاهِرُ الوَسْوَاسِ ، مُنْتِنُ الأَنْفَاسِ ، كَثِيرُ المَعَايِبِ ، مَشْهُورُ المَثَالِبِ ، كَلامُكَ تَمْتَمَةٌ ، وحَدِيثُكَ غَمْغَمَةٌ ، وبَيَانُكَ فَهْفَهَةٌ ، وضِحْكُكَ قَهْقَهَةٌ ، ومَشْيُكَ هَرْوَلَةٌ ، وغِنَاكَ مَسْأَلَةٌ ، ودِينُكَ زَنْدَقَةٌ ، وَعِلْمُكَ مَخْرَقَةٌ :

مَسَاوٍ !! لَو قُسِمْنَ عَلَى الغَوَانِي لَمَا أُمْهِرْنَ إلا بِالطَّلاقِ » .

وتنطلق ولادة – فالرسالة على لسانها – تذكر محاسنه التي أخبرتها بها المرأة التي أرسلها لها ؛ حتى خيَّلت لها أنه جَمَعَ كُلَّ الفضائلِ من جمال وقوة وسلطان وحسن منادمة وشجاعة ، فهو المثل الأعلى في الأخلاق والثقافة ، ثم تُشَبِّهه بملك من ملوك الأعاجم ، أو سيد من سادة العرب ، أو فيلسوف من فلاسفة اليونان ، وغيرهم ، وكل ذلك يجري مجرى التهكُّم .

وتخلط ذلك بسرد الأمثال والأشعار التي تُنَاسِب المَقَام ، وما تلبث أن تُفصح عَمَّا في نفسها ، فتتوعده وتنذره ، ثم تنهال عليه بالسباب والشتائم ، وترعد « وَهَلاَّ عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ والغَرْبَ لا يَجْتَمِعَانِ ؟ وَشَعَرْتَ أَنَّ نَادِيَي المؤمنِ والكافرِ لا يتقاربانِ ؟ وقلتَ : الخَبِيثُ والطَّيِّبُ لا يَسْتَوِيَانِ ؟ وتَمَثَّلْتَ :

أَيُّهَا المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللهَ ! ! كَيفَ يَلْتَقِيَانِ ؟

وذَكَرْتَ أَنِّي عِلْقٌ لا يُبَاعُ مِمَّنْ زَادَ ، وَطَائِرٌ لا يَصِيدُهُ مَنْ أَرَادَ ، وغَرَضٌ لا يُصِيبُهُ إلا مَنْ أَجَادَ ، مَا أَحْسَبُكَ إلا كُنْتَ قَدْ تَهَيَّأْتَ لِلتَّهْنِئَةِ ، وتَرَشَّحْتَ لِلتَّرْفِئَةِ .

أولَى لَكَ !! وَلَولا أنَّ جَرْحَ العَجْمَاءِ جُبَارٌ ، لَلَقِيتَ مِنَ الكَوَاعِبِ ما لاقى يَسَارٌ ، فَمَا هَمَّ إلا بِدُونِ مَا هَمَمْتَ بِهِ ، ولا تَعَرَّضَ إلا لأيسَرِ ما تَعَرَّضْتَ لَهُ ، أينَ ادِّعَاؤُكَ رِوَايَةَ الأشعارِ ؟ وَتَعَاطِيكَ حِفْظَ السِّيَرِ والأخْبَارِ ؟ أما ثَابَ إليكَ قولُ الشاعرِ ؟ :

بَنُو دَارِمٍ أكْفَاؤُهُمْ آلُ مِسْمَعٍ وَتُنْكَحُ فِي أكْفَائِهَا الحَبِطَاتُ

وَهَلاَّ عَشَّيتَ ولَمْ تَغْتَرَّ ، ومَا أمَّنَكَ أنْ تَكُونَ وَافِدَ البَرَاجِمِ ؟ أو تَرْجِعَ بصَحِيفةِ المُتَلَمِّسِ ؟ أو أفْعَلَ بِكَ مَا فَعَلَهُ عَقِيلُ بْنُ عُلَّفَةَ بِالجُهَنِيِّ ؛ إذْ جاءَهُ خَاطِبًا ، فَدَهَنَ اسْتَهُ بِزَيتٍ وَأدْنَاهُ مِنْ قَرْيَةِ النَّمْلِ ؟ ومَتَى كَثُرَ تَلاقِينَا ؟ وَاتَّصَلَ تَرَائِينَا ؟ فَيَدْعُوَنِي إلَيكَ مَا دَعَا ابْنَةَ الخُسِّ إلى عبدِهَا من طُولِ السِّوَادِ ، وَقُرْبُ الوِسَادِ ؛ وهَلْ فَقَدْتُ الأرَاقِمَ فَأنْكَحَ فِي جَنْبٍ ؟ أو عَضَلَنِي هُمَامُ بْنُ مُرَّةَ فأقولُ : (زَوجٍ مِنْ عُودٍ خَيرٌ مِنْ قُعُودٍ) ؟

وَلَعَمْرِي !! لَو بَلَغْتُ هَذَا المَبْلَغَ لارْتَفَعْتُ عَنْ هَذِهِ الحِطَّةِ ، وَمَا رَضِيتُ بِهَذِهِ الخُطَّةِ ، فَالنَّارُ وَلا العَارُ ، وَالمَنِيَّةُ وَلا الدَّنِيَّةُ ، وَالحُرَّةُ تَجُوعُ وَلا تَأكُلُ بِثَدْيَيهَا » .

وتقول له لا يغرَّنك من شَهِدْتَ حَولي من أقمار العصر وريحان المصر، وأين أنت منهم ، إنهم في السماء ، أما أنت ففي الحضيض والدَّرْك الأسفل ، وما تزال به تُؤَنِّبُهُ على ما سَوَّلَتْهُ نفسُه له من محاولة الدُّنُوِّ منها ، وهي نجمة عالية في السماء ، لا تطولها يد .

وقد حاول ابن زيدون صرف ابن عبدوس عن ولادة ، وتقبيحه في عينيها ، ولكنه أخطأ حين صورها في رسالته بصورة لا تتناسب مع امرأة شريفة حُرَّة ، فقال على لسانها : « وأينَ مَنْ أنْفَرِدُ بِهِ ، مِمَّنْ لا أُغْلَبُ إلا عَلَى الأقَلِّ الأخَسِّ مِنْهُ ؟ وَكَمْ بَينَ مَنْ يَعْتَمِدُنِي بِالقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ ، وَالشَّهْوَةِ الوَافِرَةِ ، وَالنَّفْسِ المَصْرُوفَةِ إلَيَّ ، وَاللَّذَّةِ المَوْقُوفَةِ عَلَيَّ ، وَبَينَ آخَرَ قَدْ نَضَبَ غَدِيرُهُ ، وَنَزَحَتْ بِيرُهُ » .

واستمر على هذا النحو يضرب الأمثال ويهجو ويتهكم إلى آخر الرسالة .

وتتميز الرسالة بإيقاعها المُنْسَجِم ، وبقِصَر الجمل ، والحرص على السجع ، الذي التزم به ابن زيدون في أغلب المواضع ، فنجده بين : (عقله ، جهله) ، (سَقَطُهُ ، غَلَطُهُ) ، (اغْتِرَارِهِ ، نَهَارِهِ) ، (الشَّرَاب ، الشِّهَابِ) ، (أكْذَبُ ، أصْوَبُ) ، كما جاء السجع بين : (الطَّبْعِ ، السَّمْعِ) ، و(الهَيئَةِ ، الجَبِيئَةِ) ، و(الوَسْوَاسِ ، الأنْفَاسِ) ، و(المَعَايِبِ ، المَثَالِبِ) ، و(تَمْتَمَةٌ ، غَمْغَمَةٌ) ، و(فَهْفَهَةٌ ، قَهْقَهَةٌ) ، و(هَرْوَلَةٌ ، مَسْأَلَةٌ) ، و(زَنْدَقَةٌ ، مَخْرَقَةٌ) .

ومن السجع ما جاءت عباراته فقرات قصيرة ذات إيقاع متلاحق ، كما نرى في قوله : « وَنَخَرْتُ وكَفَرْتُ ، وعَبَسْتُ وَبَسَرْتُ ، وأبْدَأتُ وأعَدْتُ ، وأبْرَقْتُ وأرْعَدْتُ » ، كما نرى الجناس بين : (بِالجَمَالِ ، بِالكَمَالِ) ، و(الجَلالِ ، الخِلالِ) ، و(غَاشِيَتَكَ ، مَاشِيَتَكَ) .

وهكذا طَغَتْ المحسنات البديعيَّة والزخرفة اللفظيَّة على الرسالة ، كما ذكر أسماء الرجال المشهورين ، وغلبت على الرسالة طريقة الإطناب ؛ فقد أطالها حتى أوشك القارئ أن يُصَابَ بالمَلَل ، لولا براعته في الصياغة .

وتدل هذه الرسالة على اطلاع واسع ، وعلم كبير بالأمثال والأخبار ، وعلى دراية وافرة بالهجاء ؛ ذلك لأنه أقذع في ذَمِّ ابن عبدوس إقذاعًا لا مثيل له ؛ وكأنه جمع فيها كُلَّ ما يمكن أن يُقَال في الذمِّ والتَّهَكُّم .

ومن رسائل **الاستعطاف الرسالة الجِدِّيَّة** التي كتبها **ابن زيدون** من سجنه إلى الوزير أبي الحَزْم بن جَهْوَر (ت٤٣٥هـ) ، وقد تعددت أغراض الرسالة ، التي بَعَثَ بها من السجن إلى ابن جهور يستعطفه بها ، ولكنه مزج الاستعطاف بكثير من الزهو والامتنان وكُرْه العقاب على ذنبٍ غير واقعيّ .

وتُصَوِّرُ الرسالة نفسية ابن زيدون قلقة حائرة ، تتأرجح بين تيارات نفسيَّة متضادة ، فهي مرة ثائرة أبية ، حين يسبغ صفات الفخر والهِمَّة والشجاعة على نفسه ، ومَرَّة خاضعة ذليلة حين يستعطف ويرجو العفو والصفح .

بدأها بألفاظ السيادة ، والدعاء له ، فقال : « يا مولايَ وسيدي الذي ودادي له ، واعتمادي عليه ، واعتدادي به ، وامتدادي منه ، ومن أبقاه الله تعالى ماضيَ حدِّ العزم ، واريَ زندِ الأملِ ، ثابتَ عهدِ النعمةِ » .

ثم اعتذر له ، مُعَزِّيًا نفسه بأن عمل الخير قد يعود على صاحبه بالشر ، وأَوَّلَ هذا الجزاء أنه صادر عن حُسْنِ نِيَّة وقصد تأديب ، وأنه لا يؤلمه إلا شماتة الأعداء ، وأخذ يرجو النجاة من السجن ، ويضرب لأجل ذلك الأمثال التي تَحُضُّ على الرحمة والتسامح ونِسْيَان الإسَاءة ؛ ليُصَبِّرَ نفسه ، ويُؤَثِّرُ في نفس الملك ؛ فيقول : « هذا العَتْبُ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ ، وَهذه النبوَةُ غَمْرَةٌ ثم تَنْجَلِي ، وهذه النكبةُ سحابة صيفٍ عن قريبٍ تَقَشَّعُ ، ولن يَرِيبُنِي من سَيِّدِي أن أبطأ سحابُهُ ، أو تأخَّر – غيرَ ضنينٍ – غَنَاؤُهُ ، فأبطأ الدِّلاءِ فيضًا أملؤُهَا ، وأثقلُ السحائبِ

مشيًا أحفلُهَا ، وأنفعُ الحيَا ما صادف جدْبًا ، وألَذُّ الشرابِ ما أصَابَ غَلِيلاً ، ومَعَ اليَومِ غَدٌ ، ولكلِّ أجلٍ كتابٌ .

له الحمدُ على اهْتِبَالِهِ ، ولا عَتْبَ عليه في إغفالِهِ :

فَإنْ يَكُنِ الفِعْلُ الذِي سَاءَ وَاحِدًا فَأفْعَالُهُ اللاتِي سَرَرْنَ أُلُوفُ »

ثم أخذ يطلب العفو ، ويستفظع هذا العقاب الذي كان بعضه كافيًا لردع الفُتَّاك والخارجين على الأنبياء ، مع أن المسألة لا تتجاوز– في حقيقتها– وشاية حاسد ، فقال : « وأعود فأقول : ما هذا الذنبُ الذي لم يَسَعْهُ عفوُكَ ؟ والجهلُ الذي لم يأتِ من وَرَائِهِ حِلْمُكَ ؟ والتطاوُلُ الذِي لم يَسْتَغْرِقْهُ تطوُّلُكَ ؟ والتحامُلُ الذي لم يَفِ به احْتِمَالُكَ ؟ ولا أخلو من أن أكون بريئًا فأين العدلُ ؟ أو مسيئًا فأين الفضلُ ؟

إلا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ أو كَانَ لِي ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أوسَعُ »

وقد أعلن براءته مما نُسِبَ إليه ظُلْمًا ، ثم حَذَّرَ سَيِّدَهُ من الإنصات لأقوال الوُشَاة الكائدين ؛ لأنهم كاذبون مخادعون ؛ يسعون للإيقاع به ، وذكَّرَهُ بجهوده معه ، ومدائحه التي صاغها فيه ، وعاد إلى استعطافه مرة ثانية ؛ فقال : « فَكَيفَ ؟ وَقَدْ زَانَنِي رَسْمُ خِدْمَتِكَ ، وَزَهَانِي وَسْمُ نِعْمَتِكَ ، وَأبْلَيتُ البَلاءَ الجَمِيلَ فِي سِمَاطِكَ ، وَقُمْتُ المَقَامَ المَحْمُودَ عَلَى بِسَاطِكَ : أَلَسْتُ المُوَالِي فِيكَ غُرَّ قَصَائِدٍ هِيَ الأنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيلِ أنْجُمَا ؟»

ثم هَدَّدَهُ وأنذره بأنه إذا لم ينل ما يستحقه من الإكرام والتبجيل ؛ فسيرحل إلى مكان آخر يُكْرَمُ فيه ؛ فقال : « وَلَعَمْرُكَ ما جَهِلْتُ أنَّ صريحَ الرأي أن أتَحَوَّلَ إذا بلغَتْنِي الشمسُ ، ونَبَا بِيَ المنزلُ ، وأصْفَحَ عَنِ المَطَامِعِ التي تُقَطِّعُ أعناقَ الرِّجَالِ » .

ولم يعفُ عنه أبو الحزم بن جهور ؛ ففر من السجن بعد أن قضى فيه خمسمائة يوم .